مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 06 العدد 02 جوان 2023 ص ص 104ـ117
ر س ع و (ISSN): 2602ـ618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

لمحة عن الحياة الثقافية في المغرب الأوسط

بجاية الحمادية "أنموذجا"

A glimpse of the cultural life in the central Maghreb, Bejaia El Hammadia"a model"

زلماط إلياس♦

جامعة ابن خلدون - تيارت zelmat.ilias@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/03/05 تاريخ القبول: 2023/06/21 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص: تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على واقع العلم والثقافة في حاضرة بجاية، تلك الحاضرة التي تزهوا بتاريخ جليل، فهي تعد بحق من أقدم وأرفع المراكز الحضارية الإنسانية، لذا سيسعى هذا البحث لعرض بعض ما يتعلق بنشأة هذه الحاضرة، فضلا عما لازم ذلك من نشاط عملي وثقافي لا ينكره أحد، ففدت مركزا ثقافيا مرموقا ينافس سائر مراكز الحضارة الكبرى بالمغرب الإسلامي، وأصبحت مهوى أفئدة طلاب العلم، من شتى أصقاع المغرب الإسلامي آنذاك، بل هناك من الأوربيون من قصدها للنهل من علومها، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على الدرجة العلمية السامقة، التي وصل إليها التعليم بهذه الحاضرة آنئذ، فانتعشت الحركة العلمية وازدهرت التجارة والعمران وصارت تضاهي وتنافس نظائرها من مدن المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: بجاية؛ الناصر بن علناس؛ الدولة الحمادية؛ الحياة الثقافية؛ التسامح المذهبي.

Abstract: This study attempts to shed light on the reality of science and culture in the city of Bejaia This city, which has a great history, is considered one of the oldest and most prestigious human centers, and in this research we will try to present some of what is related to the establishment of this city in addition to the scientific and cultural activity that appeared in it, and it became a well-known cultural center that competes with the rest of the other civilized centers,It became what students of knowledge from all parts of the

♦ المؤلف المرسل

Islamic world aspired to, and there are even Europeans who intended to learn from its sciences, and this indicates the high scientific degree that education reached in this city at that time, so the scientific, commercial and urban movement increased, and it became competitive with its peers from Cities of the Islamic Maghreb.

Keywords: Bejaia; Nasser bin Alnas; cultural life; the Hammadi state; sectarian tolerance;

مقدمة: شكلت مدينة بجاية منذ تأسيسها كعاصمة للحماديين خلال العصر الوسيط، إحدى أهم المدن المغرب الأوسط، فلم ينحصر دورها في المجال السياسي كعاصمة الدولة فقط، بل تعداها إلى الناحية العلمية والثقافية، فصارت حاضرة كبرى، تضاهي وتنافس مثيلاتها من سائر مدن البحر المتوسط، وذلك بفضل إسهاماتها العلمية والثقافية المتميزة، والتي نشأت بفضل استقطابها لكثير من العلماء، الذين دأبوا على ممارسة نشاطاتهم العلمية والدينية بها، فضلا عن توفرها على الكثير من المعاهد التعليمية المتنوعة، التي سهلت مهمة التدريس ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم.

ويبدو أن بجاية منذ تأسيسها، كانت تزخر بثلة من العلماء، منهم أبناء بجاية الأصلاء، ومنهم الوافدون عليها، ونخص بالذكر في هذه الدراسة، علماء الدين، من فقهاء ومفسرين ومحدثين وغيرهم، ومن هنا نطرح التساؤلات التالية : ما مدى تأثير حاضرة بجاية في استقطاب العلماء ؟ وما هي مظاهر النشاط العلمي لهؤلاء العلماء؟ وما هو الدور الذي نيط بأمراؤها من أجل استقطاب العلماء والطلبتهم؟ وللإجابة على هذه التساؤلات، كان لزاما علينا أن نقسم هذه الورقة البحثية إلى محاور، حيث تناولنا في أولها مدينة بجاية وكيف صارت عاصمة للدولة الحمادية،أما المحور الثاني خصصته لذكر أهم الأمراء الذين استوطنوا بجاية، وكان لهم حظ وإسهام في تشجيع العلماء وطلبة العلم على حد سواء في انتجاع هذه الحاضرة، ولنختم هذه الورقة البحثية بذكر أهم العلوم الدينية التي دأب العلماء على تدريسها لطلبهم في بجاية ولنبدأ بالمبحث الأول:

1- مدينة بجايةعاصمة الحماديين :

تمثل مدينة بجاية في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضر والانفتاح والهدوء والاتساع، يصفها الحميري بقوله:" قاعدة الغرب الأوسط، مدينة عظيمة على ضفة البحر،

يضرب سورها، وهي على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل يسمى أمسيول، وبها دار لإنشاء الأساطيل لكثرة الخشب بها في أوديتها وجبالها"[1].

وللمؤرخين والجغرافيين عدة تفسيرات بشأن تسميتها، فيذكر الغبريني نقلا عن ابن خلدون قوله:" أن موقع بجاية كان قرية تسكنها قبيلة بربرية تسمى بجاية أو بقاية فأطلق هذا الاسم على المدينة وسميت به"[2].

والحاصل أن بجاية كانت في القديم تدعى "صَلْداي" في العهد الفينيقي، وذلك سنة 104ق.م [3]، وهي عبارة عن ميناء بحري، تسكنها قبيلة تسمى "بجاية" أو "بوجي"، وهي فرع لإحدى القبائل الكبرى المنتشرة في المغرب[4].

أما عن دخول الإسلام إليها، فكان ذلك سنة 708م، إذ دخلت تحت الحكم الإسلامي، ولم يُعرف لها تاريخ يذكر في العهد البربري، إلا في العهد الحمادي[5].

ومن المؤكد حسب الروايات التاريخية، أن بناء مدينة بجاية راجع للأمير الحمادي الناصر بن علناس، وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دعت لبناء هذه المدينة، واعتبارها كعاصمة ثانية لبني حماد، بعد مدينة القلعة، حيث ذكر بعض المؤرخين أن سبب بنائها يعود إلى خراب القلعة إثر موقعة سبيبة غرب القيروان[6]، والتي

1- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان ،ط2، 1984، ص81.

2- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية،تح، رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982م ص4.

3- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد (صفحة رائعة من تاريخ الجزائر)، ، مكتبة الإسكندرية، القاهرة : ط2، 1991ص99.

4- الهادي روجي إدريس، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن إلى القرن 12م، ج، 2 تر، حمادي الساحلي بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992م ص107.

5- محمد مكحلي ،حركة التأليف في الحضارة الحمادية، مجلة الفضاء المغاربي العدد ،02 السنة، 2004ص270.

6- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص99.

هُزَمَ فيها الناصر سنة 457هـ /1064م أمام أبناء عمومته الزيريين، ونتيجة خيانة القبائل العربية له بعد تحالفهم ضده، فكان ذلك سببا في بناء مدينة بجاية[7].

ويرى ياقوت الحموي أن السبب في اختطاطها هو أن تميم ابن المعز بن باديس صاحب افريقية، أرسل محمد بن البعبع رسولا إلى ابن عمه الناصر بن علناس، فمر ابن البعبع هذا بموضع بجاية، فأعجب به، ولما قدم على الناصر دله على مكانه واقترح عليه بناء بجاية[8].

قام الناصر بجلب العمال والمهندسين وشرع في تعميرها سنة460هـ /1067م، ونقل الناس إليها وأطلق عليها اسم الناصرية، واتخذها عاصمة له، وقد انتقل إليها السلطان فور انتهاء بنيانها سنة 461هـ/1069م، وتبع هذا بالضرورة انتقال دواوين الدولة، واتخذها عاصمة جديدة لدولته وأطلق عليها اسم الناصرية، فقصدها الناس من كل حدب وصوب، وعظم شأنها وعلا صيتها، ثم واصل ابنه المنصور بعده عملية البناء والتشييد[9].

ووصفها الإدريسي بقوله: "مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، السفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة"[10]

أما العبدري فقد وصفها قائلا: "مدينة كبيرة عجيبة منيعة شهيرة، برية بحرية سنية سرية، وثيقة البنيان عجيبة الإتقان رفيعة المباني، غريبة المعاني موضوعة في أسفل سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر[11].

ويصفها ياقوت الحموي بقوله:" وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شيء، إنما هي دار مملكة "[12]، ويستشف من كلام الحموي أنه قد أعجب بها

7- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت، ج2، ص 265

8- ياقوت الحموي أبو عبد الله شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج 1، ص339.

9- ابن خلدون عبد الرحمن: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1 سنة 1413هـ 1992م، ج6 ص369.

10- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، دط، سنة 1863، ص260.

11- العبدري محمد البلنسي، الرحلة الغربية، تح، سعد بوقلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر ط1، سنة 2007م، ص 49

وبموقعها الأخّاذ، الذي يستهوى كل من رآه، حتى أنه عدها دار مملكة، لما رآه فيها من جمال أخّاذ يسلب الألباب، وما قوله " لا يخصها من المنافع شيء" إلا دليل بَيّن واضح على ذلك.

أما صاحب الاستبصار فيذكرها على أنها:"مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة، قد أحاط البحر منها في ثلاث جهات: في الشرق والغرب والجنوب، ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالواد الكبير"[13].

وبجاية مدينة سياسية وإدارية في المقام الأول بناها الناصر بن علناس نتيجة لشعوره بخطر أبناء عمومته الذين لم تهدأ ثوراتهم بعد كما مر معنا، وكان بناؤها في نفس العام الذي حصلت له فيها الهزيمة، مما يؤكد اتجاهه إلى اتخاذ الحيطة والحذر له ولبنيه من بعده في بناء هذه المدينة.

وبفضل موطنها الحصين الذي تميزت به مدينة بجاية، لم يكن للمناوئين لها من العرب الهلالية[14] حظ في دخولها، الأمر الذي حدى بأهل إفريقية وشجعهم على الهجرة إليها، وأدى إلى ازدهار العمران وزيادته فيها، وهكذا كان لا يدخل إليها العرب إلا من يبعث السلطان في طلبه، فبقي صاحب بجاية في ملك شامخ وعز باذخ"[15].

وهكذا صارت بجاية أثرا خالدا من آثار الحماديين الإنسانية ومحدثاتهم في بلاد المغرب، فهي دون ريب من منشآتهم التي قد تهيأ لها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ المغرب الإسلامي .

2-الحياة الثقافية والفكرية في بجاية عهد الدولة الحمادية: نالت مدينة بجاية شهرة كافية منذ نشأتها، فأصبحت قطبا حضاريا وثقافيا وفكريا تضاهي في ذلك نظيراتها، القيروان ومدن الأندلس، خاصة وأنها أصبحت عاصمة الدولة الحمادية .

12- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 339.

13- مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، تع، سعد زغلول عبد الحميد، دار شؤون الثقافة العامة، بغداد ط 2 سنة 1986م، ص129.

14- العرب الهلالية : هم بنو هلال ينسبون إلى هلال بن عامر بن صعصعة، من العدنانية سكنوا نواحي قسنطينة والمسيلة والزاب، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح، ابراهيم الأبياري، ط3 دار الكتب المصرية القاهرة 1991م ص267.

15- سعدزغلول عبد الحميد:تاريخ المغرب العربي (الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون، إلى قيام المرابطين)دار المعارف، الاسكندرية، سنة 1990م ج3، ص458.

1.2.دور الحكام في بناء الحياة الفكرية والثقافية في بجاية عهد الدولة الحمادية:

تعتبر بجاية من المدن التي نالت شهرة في كافة الميادين ولا غرو، فقد برزت كغيرها من الحواضر في بلاد المغرب الأوسط، خاصة وأنها تحولت إلى عاصمة الدولة الحمادية، حيث عرفت ازدهارا في الجانب الثقافي والعلمي، وماساهم في ذلك هو جهود الساسة، والمتمثل في سعي الأمراء الحماديين الدؤوب إلى العمل على نشر الأمن والاستقرار في مختلف أرجاء الدولة[16].

فمنذ نشأتها سعى مؤسسوها، إلى توفير الأمن بها وقد زادت مكانتها خاصة بعد أن رحل الحماديون من القلعة إليها واستقروا بها، والتي عرفت آنئذ باسم الناصرية، نسبة إلى مؤسسها الناصر بن علناس كما أشرنا، فمسيرة الحياة العلمية كانت تزهو وتتقدم غالبا في ضل الأمراء والحكام الذين يشجعون العلم والعلماء والأدب والأدباء، فنالت بحاية حضها من هذا الاهتمام، فكان حكامها يحيطون أهل العلم والأدب برعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم، وكانوا ينطلقون في هذا من حب الكثيرين منهم للعلم والأدب أولا، ولرغبتهم في إضفاء جو من الأبهة والذكر الخالد لبلاطاتهم ثانيا، لاسيما وأن العصر الذي نتحدث عنه آنذاك سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين كان عصر ازدهار العلم والفكر والأدب[17]. وقد نالت بجاية اهتماما كبيرا من كتب الرحالة والمؤرخين نظرا لمكانتها كعاصمة علم ومعرفة ومركز إشعاع حضاري لامع .

1.1.2بجاية عهد الناصر بن علناس (454هـ 481هـ):

أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرهم دهاء وحنكة سياسية، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة[18]. ويذكر ابن الخطيب :" أن مملكة الناصر اتسعت بعد أن بايعه أهل القيروان وذلك سنة ستين وأربعمائة، كما قصده الشعراء والأدباء"[19].

16- ابن الذيب عيسى، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر، ص 122.

17- يوسف أحمد حولة : الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري "كلية الشريعة جامعة أم القرى، مكة سنة 1986م، ص175.

18- شوقي ضيف ،عصر الدول والإمارات، دار المعارف القاهرة ط1 دت ص37.

19- لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعمال ،تح، أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1964، ج3 ص 94.

وقد انتشر في هذا العهد ظاهرة التنافس الثقافي، وكان السباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس، وساعد على نجاح هذا التنافس بالنسبة للحماديين رعايتهم وتشجيعهم للعلماء والمفكرين، فقد كانوا يؤثرون العلماء على سائر الطبقات ويقدمونهم[20].

وكان الناصر خاصة أطول ملوك الحماديين باعا في هذا المضمار، فقد كان يؤمه الأدباء ويقصده الشعراء فيغدق صلاته عليهم[21]. كما عرف في عهده الاستقرار والتحضر لأن غايته كانت تصب في انتقال بجاية من طور إلى آخر، وكما يبدوا فإن الناصر كان إنسانا مسالما يميل إلى الهدوء ولا يحب الانغماس كثيرا في المشاكل السياسية[22].

على الرغم من الصعوبات التي واجهت السلطان الناصر إلا أنه خلّف مملكة قوية مزدهرة، فقد عني ببجاية حتى صارت ملجأ أفواج اللاجئين، والشعراء والفنانين، وهذا ما جعلها مركزا من المركز الثقافية الهامة في العالم الإسلامي[23].

2.1.2 بجاية عهد المنصور بن الناصر بن علناس (481هـ 498هـ):

ليتولى بعده ابنه المنصور الذي سار على نهج أبيه في أمور السياسة، واقتفى بذلك آثاره في الحزم والعزم والرياسة[24].

ويقول ابن خلدون عن المنصور :"كان مولعا بالبناء، الذي حضر بني حماد وتأنى في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور،وإجراء المياه في الرياض والبساتين"[25].

أما عن الحياة الثقافية في عهده، فقد كانت مرعية، وإن أردت الوقوف على شيء مما يدل على ذلك فدونك قول ابن الخطيب في معرض كلامه عن المنصور :"كان

20- ابن الخطيب ،المصدر السابق، ج3 ص95

21- ابن خلدون، المصدر السابق ، ج6، ص 231.

22- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص137.

23- إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1980م، ص 182.

24- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8 ص 116.

25- ابن خلدون، المصدر السابق ، ج6، ص67.

قائما على أمره، حميد الخصال، ضابط الأمور، يكتب الشعر، ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور، من وقع الثياب والتحفظ على القليل من الأشياء "[26].

ولا مندوحة من القول بأن السلطان الناصر كان يسير على نهج أبيه في الاهتمام بالعلم والعلماء والأدباء والشعراء تشجيعا ودعما، وقد بدا ذلك جليا من خلال كلام المؤرخين والجغرافيين، الذين نقلوا لنا أخبار بجاية في عهده.

وعلى كل حال فإن ما نستطيع الاختتام به هذه النقطة، هو أن المدينة قد استمدت مكانتها العلمية كما ذكرنا من واقعها السياسي، إلا أنها فقدت بعضاً من أهميتها الثقافية في الفترة الأخيرة من حكم المنصور، بعد أن غادرها وفود اللاجئين من العلماء والشعراء المجاورين ببجاية.

3.1.2 بجاية عهد العزيز بن المنصور (498هـ 518 هـ): خَلَفَ، العزيز أباه المنصور ليتسلم حكم الإمارة الحمادية، والتي كادت تكون امتدادا لحكم أبيه وجده الناصر من قبل، في نمو الدولة وعلو شأنها الثقافي والعلمي، فقد كان حازما ماهرا عارفا بتسيير الدول والممالك[27].

ويصف ابن خلدون أيامه بأنها كانت هدنة وأمانا، أما ابن الخطيب فيقول أن أيامه كانت أعيادا لحسنها وجمالها[28].

وقد كرس العزيز جهوده في إعادة السلام إلى نصابه بين صنهاجة وزناتة، كما شجع العلم والثقافة وذلك بإعادة بجاية لإيواء وفود اللاجئين من العلماء والشعراء، الذين قدموا من شتى الأصقاع، بعد أن غادروها لتدهور أوضاعها، كما عرف عنه أنه كان مولعا بمجالسة العلماء والاشتراك في المناظرات[29].

ولا مناص لنا من القول بأن بجاية شكلت في العهد الحمادي قطبا ثقافيا ودينيا هاما، تجاوز إشعاعها النطاق المغربي، بشهادة الكثير من المصادر[30].

26- ابن الخطيب، المصدر السابق ،ج3، ص97.

27- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص148.

28- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص99.

29- اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص206.

30- صالح بعيزيق، بجاية وتلمسان بين الصراع والتواصل أيام الحفصيين والزيانيين، دراسات تراثية، المجلد07، العدد 01، ص72.

2.2. دور التسامح المذهبي في بناء الحياة الفكرية والثقافية في بجاية عهد الدولة الحمادية:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي الحركة الشيعية[31]، واعتُمدت كمذهب رسمي للدولة العبيدية (الفاطمية) في القرن الثاني والثالث للهجرة[32]، وقد مس علماء المالكية التضييق والمطاردة والمسائلة والنفي والمحاكمة من قبل العبيديين وذلك نصرة لمذهبهم، وقد بلغ بهم الأمر إلى قتل علماء المالكية، مما دفع بهم للثورة ضد هذا المذهب، ولم تُؤْت هذه الثورات أكلها، إلا في عهد المعز بن باديس[33]، الذي حصلت في عهده القطيعة المذهبية بينه وبين العبيديين، واستطاع التمكين للمذهب المالكي[34] في بلاد المغرب[35].

سار الحماديون على نهج سابقيهم من بني عمومتهم الزيريين، فلم يهتموا بالمذهب الشيعي، واستغلوه سياسيا بادئ الأمر، وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن المصادر التاريخية قد أجمعت على أن موازين القوى قد تغيرت، وأن مرحلة الذل والهوان الذي ضرب على المالكية قد ولّى، وأصبح للحماديين في بلدهم كلمتهم المسموعة، بعد ما أخذت الأحداث في المغرب الإسلامي تتجه اتجاهاً جديداً لصالحهم، خاصة بعد أن أُعلن العداء بينهم وبين المذهب الشيعي زمن المعز بن باديس[36]، الأمر الذي جعل الفاطميين

31- الشيعة: هي أقدم المذاهب السياسية الإسلامية، وسموا بذلك نسبة لتشيعهم لعلي، رضي الله عنه، ظهرت هذه الحركة في بلاد المغرب على يد :"أبي عبد الله الشيعي " ولهم عدة فرق منها الإسماعيلية التي دخلت بلاد المغرب محمد أبو زهرة، ص 30.

32- موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 ص 1981م، ص 158.

33- المعز بن باديس: المعز بن باديس ت545هـ :أحد ملوك الدولة الحمادية تولى الحكم سنة 406هـ، ويرجع الفضل إليه في قطع الدعوة العبيدية سنة 441هـ، ابن الخطيب، المصدر السابق ، ج3، ص30.

34- المذهب المالكي : ينسب إلى الإمام مالك بن انس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة ت 179هـ ومذهبه هو أحد المذاهب السنية الأربعة، وقد دون الإمام .مذهبه في كتابه الموطأ، ليسود في الحجاز وخاصة المدينة المنورة، الذهبي محمد ابن أحمد ابن عثمان 742هـ1342م سير أعلام النبلاء تحقيق، شعيب الأرنؤوط ولآخرون مؤسسة الرسالة ،بيروت ط3 ، 1405هـ1985م ، ج8 ص65.

35- ابن خلدون، المصدر السابق ، ج6، ص206.

36- المعز بن باديس: المعز بن باديس ت545هـ :أحد ملوك الدولة الحمادية تولى الحكم سنة 406هـ، ويرجع الفضل إليه في قطع الدعوة العبيدية سنة 441هـ، ابن الخطيب، المصدر السابق ، ج3، ص30

الشيعة يدركون أن عليهم مجابهة هذه القوة المتنامية، والتي لم تكن في حسبانهم، فأرسلوا إليهم العرب الهلالية للانتقام لفعلتهم تلك[37].

كان لاستعادة المذهب المالكي مكانته في الدولة الحمادية، بالغ الأثر في نفوس الفاطميين الشيعة، وقد تجلى ذلك في ردة فعلهم، إذ أرسلوا إليهم العرب الهلالية للانتقام منهم، وهذا الكلام يُلمس منه مدى حنق الشيعة على أهل السنة .

وعموما فقد تعددت المذاهب والعقائد في الدولة الحمادية، رغم سيادة المذهب المالكي، ومع هذا فقد كان الطابع الإسلامي تسوده روح التسامح، والعلاقات الطيبة، وقد سادت بين الحماديين عدة مذاهب منها السنية ومنها الخارجية كالإباضية[38].

ويبقى أن نشير أخيرا إلى نقطة هامة، وهي أن اليهود والنصرى كانوا متواجدين في مدينة بجاية، إذ كان يقطن في المدينة أقلية منهم، يتمتعون بحريتهم الدينية، حتى وصل بهم الحال إلى بناء كنيسة لهم ببجاية[39].

3- أشهر العلماء في بجاية عهد الدولة الحمادية:

عرفت مدينة بجاية ثلة من العلماء الأجلاء الذين كان لهم دور كبير في دفع الحركة العلمية والثقافية في هذه الحاضرة، حتى غدت دراسة العلوم النقلية عنصرا من عناصر التكوين الثقافي لها، فهَمَّ رجال العلم على بث هذه العلوم، وبذلك تمكنت بجاية من إرساء قواعد علمية ساهمت في احتضان العلماء الذين كانت لهم اليد الطولى في التأليف، وإذا ما قدرنا حجم المجهود المبذول في تأليف كتاب واحد كالحاوي الذي يقع في ثمانية عشر مجلدا في اللغة من تأليف عبد الحق الأزدي الاشبيلي ببجاية أدركنا حجم النشاط العلمي الذي تميزت به هذه المدينة[40].

هذا المناخ العلمي المتميز كان وراء استقطاب بجاية لعدد موفور من العلماء من المدن الأندلسية والمغاربية، وامتد ذلك إلى القرن السابع الهجري، وقد قال العبدري في رحلته التي مر فيها ببجاية بأنها: "بقية قواعد الإسلام، ومحل جلة من العلماء

37- موسى لقبال، المرجع السابق، ص 158.
38- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص125.
39- نفسه، ص258.
40- الغبريني، المصدر السابق، ص 43.

الأعلام"[41]. لقد تأصلت وترسخت في بجاية مناهج علمية في الدراسات الشرعية والعلوم النقلية والعقلية نذكر منها:

1.3.الفقه المالكي:

إن التطرق لموضوع الفقه في بلاد المغرب الأوسط عامة وحاضرة بجاية خاصة، يقودنا للحديث عن الفقه المالكي الذي انتشر في المنطقة منذ القرن الثاني للهجرة[42].

إذ شهدت بجاية نهضة فكرية في العلوم الدينية، خاصة الفقه، حيث تعددت تآليف علماء بجاية في هذا الفن، ولا أدل على ذلك ما ذكره الغبريني عن أبي على المسيلي من أنه قال :" أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا"[43].

ومن كبار فقهاء مدينة بجاية في العهد الحمادي نجد: العالم الجليل الشيخ مروان بن علي الأسدي المعروف بالبوني (ت 440ه/1048م)، كان حافظا ناقدا في الفقه والحديث، وله مختصر في تفسير الموطأ[44].

أضف إلى ذلك الشيخ العالم عمر بن عبد الله بن زاهر (ت 440ه/1048م)، والذي عرف برواياته عن علماء عصره، منهم الشيخ أبو عبد المالك بن مروان البوني والشيخ أبو القاسم إسماعيل بن يربوع السبتي، وغيرهم، وظلت الدراسات الفقهية في حاضرة بجاية تزدهر على يد علماء وفقهاء ذاع صيتهم في كل البلاد[45].

2.3.التفسير: مهما تزاحمت العلوم على العلماء تدريسا وتصنيفا، فالرجوع إلى تفسير القرآن هو الأصل والتمام، ومرد العلوم كلها إلي القرآن، فهو مادتها وإليه مرجعها من هنا جاء اهتمام علماء بجاية بهذا الفن،فن التفسير، الذي يبحث عن معاني القرآن وفهمها وتدبرها[46].

41- العبدري، المصدر السابق، ص24.

42- نجم الدين الهنتاتي، المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، تونس سنة 2004، ص42.

43- الغبريني، المصدر السابق، ص36.

44- ابن بشكوال، الصلة، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة ج1ص889.

45- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 259.

46- حمد بن إبراهيم العثمان : التحبير لقواعد التفسير، المملكة العربية السعودية ط5، 2018م ص 12

والجدير بالذكر أن طلاب العلم والعلماء ببجاية كان تفسير كتاب الله شغلهم الشاغل، يقبل أحدهم على كتاب الله فيجعل تدبره وتعقله من أكبر همه ومن أعظم شواغله، وهذا ما كان مستشريا بينهم.

وقد كان متكأ علماء بجاية في ذلك تفاسير عدة من علماء مبرزين في هذا الفن، الذين نالوا قصب السبق في هذا الباب، وتلقت الأمة بالقبول تفاسيرهم، نذكر منهم كتاب "الكشاف" للزمخشري، والذي كان متداولا بين طلبة العلم في بجاية، حتى عَدَّهُ ابن خلدون من عُدَّة طلبة بجاية آنئذ[47]، وكتاب " الوجيز في شرح كتاب الله العزيز " للشيخ ابن عطية المغربي (ت542ه /1147م)، الذي أثنى عليه ابن خلدون ثناء حسنا، واتصلت شهرته حتى سار من أكثر التفاسير شيوعا في بلاد المغرب، إذ يقول فيه :"وجاء الشيخ أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب للصحة منها، ووضع ذلك في كتاب ليتداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى "[48].

ومن خلال هذا النص نلمس في ثناياه بريق الفرح والسرور الذي خلّفه أثر هذا العالم في نفس ابن خلدون، حتى جعله يثني عليه الثناء الحسن، ويعلي من مقامه ومن شأنه مؤلَفه، الذي ذاع صيته واتصلت شهرته حتى بلغت أرض الأندلس.

3.3-الحديث الشريف : عرفت مدينة بجاية علماء تخصصوا في علم الحديث رواية ودراية، فنجد من بين من اشتهر بهذا العلم من المغاربة، الشيخ أبو محمد عبد الحق الإشبيلي (ت582ه)، ألف العديد من التآليف وصنف الدواوين وولي الخطبة وصلاة الجماعة في جامع بجاية الأعظم، ووصف برأس المحدثين له تآليف جليلة تداولها الناس منها كتاب :"الأحكام الكبرى في الحديث "، و"الأحكام الصغرى"، وله كتاب العاقبة في علم التذكير[49].

4.3.الأدب: حظيت الدراسات الأدبية باهتمام كبير من قبل علماء المغرب وأدبائه، فقد كانت المجالس اللغوية تعقد لدراسة النحو والعروض والبيان، وتقام من أجل ذلك المناظرات بين الأدباء وعلماء اللغة والنحاة، للتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من اللحن، وقد أقبل الأدباء والطلاب على دراسة كتب الأدب المشهورة ككتاب

47- ابن خلدون، المصدر السابق ج1، ص 554.
48- ابن خلدون، المصدر السابق ج1، ص 555.
49- عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 269.

الجمل للخونجي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، الإيضاح لأبي علي الفارسي، كتاب سبويه، العمدة لابن رشيق، كتاب الأغاني، وغيرهم[50].

4.خاتمة:

يمكننا القول بأن بجاية كانت مركزا من مراكز الثقافة والعلوم في المغرب الأوسط طوال مدة دورها السياسي والإداري كما مر معنا، إذ كانت محط طلاب العلم ورجالات الأدب واللغة، كما كان يأوي إليها المشتغلون بعلوم الأوائل وأصحاب المذاهب، فيجدون فيها الراحة والطمأنينة، فيبدعوا ويألفوا، وما زادها أهمية أنها مرسى وثغر يمر به الحجاج وطلاب العلم القاصدون لبلاد المشرق فيقيمون بها، ويأخذون عن علمائها. والواقع أن ما قدمته بجاية من إنتاج علمي وفكري نموذج بسيط في إثراء الحضارة العربية الإسلامية، ودليل آخر على ما تزخر به الجزائر من تراث قيم يحتاج إلى بعث وإحياء من جديد.

المصادر:

-الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان ،ط2، 1984.

-الذهبي حمد ابن أحمد ابن عثمان 742هـ1342م سير أعلام النبلاء تحقيق، شعيب الأرنؤوط ولآخرون مؤسسة الرسالة ،بيروت ط3 ،1405هـ1985م ، ج8

- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، دط، سنة 1863، ص260.

- العبدري محمد البلنسي، الرحلة الغربية، تح، سعد بوقلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر ط1، سنة 2007م - الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تح، رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982م

- القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح، ابراهيم الأبياري، ط3 دار الكتب المصرية القاهرة 1991م ص267.

- الهنتاتي نجم الدين، المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، تونس سنة 2004،

- ابن الخطيب لسان الدين ،أعمال الأعمال،تح، أحمد مختار العبادي،محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة 1964، ج3.

-ابن بشكوال، الصلة، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصرية، ط1،القاهرة ج1ص889.

- ابن خلدون عبد الرحمن: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1 سنة 1413هـ 1992م، ج6

- مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، تع، سعد زغلول عبد الحميد، دار شؤون الثقافة العامة، بغداد ط2 سنة 1986م، ص129.

50- معلاش مريم، الحياة العلمية والفكرية بالمغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري، مجلة أنتربولوجية الأديان، المجلد 09، العدد 01، ص.200

5.قائمة المصادر والمراجع:

-ياقوت الحموي أبو عبد الله شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج 1.

المراجع:

-إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1980م.

- الهادي روجي إدريس، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن إلى القرن 12م، ج 2، تر، حمادي الساحلي بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1،

- بن الذيب عيسى، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر .

- حمد بن إبراهيم العثمان: التحبير لقواعد التفسير، المملكة العربية السعودية ط5، 2018م

- سعدزغلول عبد الحميد:تاريخ المغرب العربي (الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون، إلى قيام المرابطين)دار المعارف، الاسكندرية، سنة 1990م ج3.

- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، دار المعارف القاهرة ط1 دت.

- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد (صفحة رائعة من تاريخ الجزائر)، مكتبة الإسكندرية، القاهرة : ط2، 1991ص99.

-مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت، ج2، ص 265.

- موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 ص 1981م .

الرسائل العلمية:

- يوسف أحمد حولة : الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري "كلية الشريعة جامعة أم القرى، مكة سنة 1986م .

المجلات:

-محمد مكحلي،حركة التأليف في الحضارة الحمادية، مجلة الفضاء المغاربي العدد ،02 السنة، 2004ص270.

- صالح بعيزيق، بجاية وتلمسان بين الصراع والتواصل أيام الحفصيين والزيانيين، دراسات تراثية، المجلد07، العدد 01،

- معلاش مريم، الحياة العلمية والفكرية بالمغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري، مجلة أنتربولوجية الأديان، المجلد 09، العدد 01.